٤

انهيار الشيوعية في يمنى صباحية الرأسمالية

obeikandl.com

obeikandl.com

مع الإنهيار السريع والدرامى للشيوعية، والتفكك المأساوى للاتحاد السوفييتى السابق، استغل الغرب الفرصة وقدم أطروحته التى تقول ان النظرية الوحيدة الصحيحة فى هذا العالم هى الرأسمالية الليبرالية، واقتصاد السوق.

وتكاتفت أجهزة الإعلام فى أمريكا وكذا الدوائر الفكرية والاستراتيجية فى اختراع نظرية أو أيديولوجية جديدة، لتعطى هذا الكلام بعداً فلسفياً وحضارياً، وقدمت نظرية تقول ان تاريخ البشرية قد انتهى عند بلوغه أقصى تطوره السياسى والفكرى وذلك بوصوله إلى الليبرالية الرأسمالية الأمريكية أو الرأسمالية فى صورتها الأمريكية وكانت تلك الفكرة قد بدأت بمقال لكاتب أمريكى الجنسية يابانى الأصل هو «فرانسيس فوكوياما» ثم توسع فيه فأصدر كتاباً يحمل هذه الفكرة ويدلل عليها تحت عنوان «نهاية التاريخ والرجل الأخير»، وبالطبع وجدت هذه الفكرة وهذا الكتاب من يروج له بواسطة قوى الإعلام الأمريكية الجبارة كأيديولوجية جديدة وتفسير جديد للتاريخ السياسى والاجتماعى والاقتصادى فى العالم على العالم كله أن يعتنقها أو يخضع لها.

وكان الإقتصادى الأمريكى روستو قد وصل إلى نتيجة قريبة من تلك التى وصل إليها فوكوياما إلا أنها لم تحظ بمثل هذا الانتشار الذى حظيت به نظرية فوكوياما لأن النظرية الأخيرة ظهرت فى وقت ملائم لها ووجدت من الأجهزة الأيديولوجية والعسكرية الأمريكية من يروج لها.

والرئيس الأمريكى الأسبق ريتشارد نيكسون يقرر إن انهيار الشيوعية يعنى أن الحل الوحيد المتاح والصالح أمام البشرية هو الرأسمالية الليبرالية فى صورتها الأمريكية ، بل انه حتى يرفض الاشتراكية الديمقراطية وينعى على هؤلاء الذين ما يزالون يحلمون بها أو يطبقونها أو يروجونها.

يقول ريتشارد نيكسون فى كتابه «الفرصة السانحة»: «ويوجد خطر حقيقى بالنسبة لأوروبا فى أن تتحول بعد عام ١٩٩٢ إلى دولة اشتراكية ديمقراطية ، وأن تتدخل الحكومات فى الأسواق التجارية، وهذا هو أحد الأسباب التي من أجلها يجب أن توجد أمريكا فى أوروبا والعالم أجمع لكى تحول دون ذلك التحول، إن التزامنا تجاه الحرية والسوق الحر، يحتم علينا أن نقاوم القوى التى تحاول أن تجعل أوروبا تعود إلى الخلف».

إذن فغير مسموح بغير الرأسمالية الليبرالية، والسوق الحر، أو الرأسمالية على النمط الأمريكى، فليست الشيوعية فقط هى المرفوضة بل أيضاً أى شكل من أشكال الإشتراكية.

وخلاصة الأمر، إن القوى الإعلامية الأمريكية تروج الآن لمقولة ان انهيار الشيوعية يثبت أن الرأسمالية هى النموذج الصحيح الوحيد وأنه غير مسموح بأى نمط آخر غير الرأسمالية فى صورتها الأمريكية والسؤال الآن: هل حقاً أن انهيار الشيوعية يعنى صلاحية الرأسمالية وهو سؤال يقود إلى سؤال آخر وهو: لماذا انهارت الشيوعية؟ وهل كان ذلك بفضل ضغط النظام الرأسمالى إقتصادياً وإعلامياً عليها؟ وهناك سؤال ثالث يطرح نفسه وهو: هل بعد انهيار الشيوعية هل تصلح الرأسمالية كبديل؟

وفى الحقيقة فإن الشيوعية لم تنهار بسبب الضغط الاقتصادى الرأسمالى عليها ولا بسبب الإعلام الرأسمالى أو اقتناع الشعوب التى كانت تعيش تحت الحكم الشيوعى بأن الرأسمالية أفضل، إن الشعوب التى ثارت على الشيوعية وأسقطتها لم تفعل ذلك بهدف الحصول على الرأسمالية، إن تلك الشعوب ثارت على الشيوعية لأن الشيوعية نظام فاسد فى أصله الفلسفى وفى تفسيره للتاريخ وفى منهجها السياسى والإقتصادى والإجتماعى، أى أنها سقطت من داخلها لأنها أفلست على

المستوى النظرى والتطبيقى، إن أحداً خارج الكتلة الشيوعية لم يكن يحلم بهذا الإنهيار السريع والمدوى للشيوعية وحتى فى الناحية الإعلامية فإن الشيوعية ظلت إلى آخر لحظة متفوقة على الرأسمالية وتجد من يقتنع بها من خارج السور الحديدى للدول الشيوعية أى من هؤلاء الذين لم يعرفوا فسادها لأنهم لم يعيشوا تحت حكمها، ولعل هذا الأمر يعترف به ريتشارد نيكسون نفسه فى كتابه «الفرصة السانحة» يقول نيكسون: «منذ حوالى اثنين وثلاثين عاماً قال لى خروتشوف فى موسكو بشىء من الصلف سوف يعيش أحفادك فى ظل الشيوعية، فأجبته قائلاً: سوف يعيش أحفادك فى حرية، وقد كنت متأكداً فى ذلك الوقت من خطأ ما قاله خروتشوف ولكنى لم أكن متأكداً من صحة ماقلته أنا».. أى أن نيكسون لم يكن متأكداً من قدرة الرأسمالية على إقناع الشعوب التى تعيش فى ظل الشيوعية على أن الرأسمالية صالحة، وإن كان متأكداً أن الشيوعية فاسدة.

وإذا بحثنا عن سبب خارجى لسقوط الشيوعية وانهيارها، فإنه بالتأكيد لم يكن بريق الرأسمالية ولا بريق القيم الغربية برمتها بل كان فى جزء كبير منه يعود إلى الإسلام وبريق الفكر الإسلامى، الذى كان هو الوحيد القادر على المغازلة الفكرية أمام الشيوعية والتصدى لها والصمود الأيديولوجى لها، وبالتالى فإن انهيار الشيوعية لا يعنى صلاحية الرأسمالية، بل يعنى صلاحية الإسلام والأيديولوجية الإسلامية.

وقد تبدو هذه نقطة غريبة على البعض، ولكن دعنا نستشهد برجل من أهلها وهو نيكسون أيضاً.. يقول نيكسون فى كتابه «الفرصة السانحة»: «لقد وقف الإسلام بصلابة ضد الشيوعية أقوى مما وقفت المسيحية ضدها، ولقد كان للوازع الدينى فى الدول الإسلامية أكبر أثر فى عدم تغلغل

السوفييت فى العالم الإسلامى».

إذن كان هناك سبب أيديولوجى خارجى لسقوط الشيوعية فهو الإسلام والمبادىء الإسلامية، ليس هذا فحسب بل وإذا كان هناك ضغط سياسى وعسكرى خارجى أدى أو أسهم فى إسقاط الشيوعية. فقد كان أيضاً للمسلمين وللجهاد الإسلامى الأفغانى، ونستدعى أيضاً نيكسون للشهادة، على طريقة وشهد شاهد من أهلها. يقول نيكسون: «إن شجاعة واستبسال المقاومة الأفغانية كانت من أهم الأسباب التى أدت إلى انهيار الإمبراطورية السوفييتية».

وقد يقول قائل إن الصمود الأفغانى كان بسبب المساعدات الأمريكية.. وهذا قول يفتقر بالطبع إلى الجدية فإذا لم تكن هناك مقاومة واستشهاد واستبسال وإرادة فولاذية للمجاهدين فإن تلك المساعدات لم تكن تفيد شيئاً، ثم إن الحقيقة المعروفة تقول إن أمريكا لم تقدم مساعدات حقيقية للمجاهدين الأفغان، ونيكسون أيضاً يعترف بذلك يقول نيكسون: «وعندما قام الجيش الأحمر بغزو أفغانستان عام ١٩٧٩ كان رد فعلنا رمزياً فقد رفضنا مشاركتهم فى الألعاب الأوليمبية وأوقفنا صفقة حبوب للاتحاد السوفييتى وأرسلنا بعض الأسلحة التى عفا عليها الدهر للمقاومة الأفغانيـة».

* * *

إذن فقد كان انهيار الشيوعية ليس بسبب صلاحيـة الرأسمالية ولا بريقها الأيديولوجى ولا حتى ضغطها السياسى أو العسكرى، بل ان انهيار الشيوعية فى حد ذاته يحمل فى طياته عدم صلاحية الرأسمالية وفسادها أيضاً مثل الشيوعية تماماً، لأن كلا من الشيوعية والرأسمالية قد خرجا من نفس الأرضية الثقافية، وهى الأرضية الثقافية للحضارة

الغربية، وبالتالى فإن فشل أحد الإفرازات وثبوت فساده يعنى ضمناً فساد الأرضية الثقافية وفساد كل إفرازاتها.. يقول المؤرخ الإنجليزى أرنولد توينبى مؤكداً أن كلا من الشيوعية والرأسمالية يخرجان من نفس الأرضية الثقافية «إن المنافسة بين الاتحاد السوفييتى والولايات المتحدة على زعامة العالم، وبين الشيوعية والمذهب الحر بالتالى على اجتذاب ولاء البشرية هو موضوع نزاع عائلى داخلى داخل أسرة المجتمع الغربى».

** ونصل الآن إلى السؤال الهام والخطير وهو بعد انهيار الشيوعية هل تصلح الرأسمالية لقيادة المسيرة البشرية ؟

وهذا يجعلنا نناقش الرأسمالية فى أصلها النظرى وفى تطبيقاتها، وأصل الرأسمالية إفراز طبيعى للحضارة الغربية، تلك الحضارة التى أفرزت الفاشية والنازية والصهيونية والشيوعية، وبالتالى فإنه من الطبيعى أن يكون مصير الرأسمالية مثل مصير باقى أخوتها إن شاء الله، لأنها نشأت مثلهم من نفس الأرضية الفاسدة.

إن الجهاز الإعلامى الغربى عموماً والأمريكى خصوصاً يقدم لنا الرأسمالية كتطور طبيعى داخلى فى المجتمع الغربى، فهل هى حقاً كذلك والجهاز الإعلامى الغربى يقول لنا ان الرأسمالية نجحت فى أن تحقق العديد من الإنجازات فى العالم الغربى بحيث أصبح مستوى دخل الفرد فى المجتمعات الرأسمالية مقارناً بالمستويات الموازية فى كثير من بلدان العالم الثالث ما لا يقل عن عشرين إلى أربعين ضعفاً فى الغالب.

والحقيقة أن الرفاهية التى تعيشها دول الشمال الرأسمالى لم تكن بسبب الرأسمالية بل بسبب نهب ثروات الشعوب الأخرى واسترقاق أهلها وأن الرأسمالية ذاتها نشأت لتكون أداة هذا النهب، ولنستمع فى هذا الصدد لشهادة الأستاذ منير شفيق فى كتابه «الإسلام في

معركة الحضارة»..

يقول الأستاذ منير شفيق: «يجرى التركيز النظرى عند الحديث عن ولادة الرأسمالية على اعتبارها مرحلة فى سياق تاريخى متتابع تحكمه قوانين داخلية فى المجتمع، ولكن هذه مسألة لا تنطبق على المجرى الفعلى للتطور التاريخى، أى لا يصعب الإثبات ان عملية العنف الخارجى والتوسع والنهب التى مارستها أوروبا قامت قبل ولادة الرأسمالية، ولم تقم لتلبية حاجة قوى إنتاج رأسمالية أصبحت تلح عليها لممارسة العنف والنهب والتوسع ضد الخارج، إن الصورة فى أوروبا تقول إن الرأسمالية ظهرت لتلبى الحاجة الناشئة عن النجاح الذى أصابه العنف والتوسع والنهب الخارجى، فهى أصبحت ممكنة ومتاحة لا نتيجة تراكم داخلى نبع من تطور قوى الإنتاج وإنما جاء نتيجة تراكم جاء من النهب الخارجى ومن ثم سمح التراكم بتطوير قوى الإنتاج وإحداث تراكم داخلى مرتبط به ومضاف إلى التراكم الأساسى الذى جاء ويجىء من عملية العنف والتوسع والنهب.

إن مجىء المجتمع الرأسمالى بعد الإقطاع أو على أنقاضه لا يؤدى إلى الإفتراض تلقائياً بأنه تطور طبيعى فى أحشاء المجتمع الإقطاعى، لأن مجىء حدث بعد حدث فى التاريخ لا يعنى بالضرورة وجود رابطة سببية بينهما، وإنما ينبغى أن تدرس الأسباب الحقيقية لحدوث الواقعة الجديدة، ومن ثم يثبت إن كان هذا التتالى نتاج تطور طبيعى أم نتاج عوامل لا علاقة لها بتطور تلقائى داخلى فى الحدث السابق.

وتؤكد الوقائع التاريخية أن ممارسة الإقطاع الأوروبى للتوسع والنهب والعنف كان أسبق من تطور قوى الإنتاج الرأسمالية أو البرجوازية فى داخله، ومن ثم من الهام جداً تحديد أيهما أسبق أو تحديد أيهما كان سببا لوجود الآخر، وهنا تطرح الفكرة القائلة إن ممارسة العنف والتوسع والنهب

من الخارج هى التى ولدت الحاجة إلى تطوير قوى الإنتاج وساعدت عليه، فعندما وجدت أوروبا نفسها قد توسعت فى عدد من الأقطار الافريقية والآسيوية والأمريكتين بدأت ترى العالم كله قابلاً للوقوع الكامل فى قبضتها، الأمر الذى جعلها بحاجة إلى نظام ديناميكى نشط قادر على اكتساح العالم كله والسيطرة عليه، وهذا ما جعل أوروبا تعيد صياغة نفسها فى البوتقة الرأسمالية، بما يخدم هذا الوضع الجديد ولآفاقه المستقبلية، قد يقول قائل ولكن التوسع الخارجى والنهب والعنف وجدت فى مجتمعات عديدة فى التاريخ ولم تتطور إلى رأسمالية، ولكن هذا القول مردود عليه، لأن حدوث التوسع هنا عاش مع تطور محدد للعلوم قد وصله العالم فى ذلك الوقت ساعد على استقبال الحاجات الجديدة واستخدامها فى تطوير أدوات الإنتاج، فضلاً عن السمات الخاصة الأساسية للأرضية التى قام عليها النمط المجتمعى الحضارى الأوروبى تاريخياً، مثل سمة الملكية الفردية والطبقية وما لعبته من دور عبر المراحل المختلفة ويقود هذا إلى عدم صحة القول بتطور طبيعى للرأسمالية من أحشاء الأقطاع، وإنما تصبح الرأسمالية نتاج حالة عالمية تكونت فى ظرف استثنائى سمحت لأوروبا أن تنجح فى اجتياح العالم بالقوة، ومن ثم فهى الابنة الشرعية لهذا الشرط العالمى ولا تستطيع أن تستمر إلا بإعادة توليده باستمرار، أى بإعادة السيطرة على العالم بالعنف وتحقيق أقصى درجات النهب وأقصى درجات الأرباح، ومن ثم سيطرة قلة من الدول المتصارعة فيما بينها على العالم كله ونهبه والمضى فى هذا الطريق حتى النهاية.

إن مسار تطور الرأسمالية لا يتجه إلى تحقيق الرفاهية والتقدم لكل الشعوب بل لعدد محدود جداً منها «أمريكا وأوروبا»، لأنه كلما تضخمت

تلك البلدان أكثر كلما أصبحت أكثر ارتباطاً بحالة السيطرة والنهب والعنف والتوسع، أى لا تعود قادرة على الكف عن العنف والنهب والسيطرة، إنه اتجاه التضخم باستمرار والعنف الأهوج والنهب بلا حدود، والجشع بحده الأقصى».

* * *

إذن فالذين يبشروننا بصلاحية الرأسمالية وأنها الكلمة الأخيرة فى التاريخ إنما هم يبشروننا فى الحقيقة بهيمنة ورفاهية وسيطرة دولة أو مجموعة دول قليلة على العالم كله تقوم فيه بدور النهب والعنف والسيطرة وبالطبع نحن من ضمن الدول والشعوب التى ستكون مادة النهب والعنف والسيطرة أى الضحية، لأن الرأسمالية لا تستطيع أن تعيش إلا بالنهب الخارجى والعنف والسيطرة.

وإذا كان هذا نصيبنا ونصيب الدول المستضعفة عموماً فى عالم الرأسمالية فإن حتى الدول التى ستقوم بدور السيطرة فى ظل الرأسمالية سوف تعود فتنهار هى الأخرى، لأنه من المحتوم أن ينتهى هذا العنف والنهب اللانهائى بتدمير نفسه، لأن ما يحدث أمامنا من التضخم فى القوة العسكرية وتلويث البيئة وثقب الأوزون والعنف اللانهائى يجعلنا نقول ان هذه الدول الرأسمالية المسيطرة تسير فى الإتجاه الديناصورى أو اتجاه التدمير الشامل، إنها تدمر كل شىء البيئة والفضاء، ولا تسمح لنفسها إلا بالإستمرار نحو التضخم حتى الإنفجار.

ولكن فى ظل هذا الوضع ما هو الحل، لنعود إلى الأستاذ منير شفيق الذى يقول: «إن مصير العالم سيظل مظلماً ما دامت تلك البلدان برأسمالييها قادرة على استخدام العنف، أما الأمل ببزوغ فجر جديد، وهذا لا يكون إلا إذا نجحت الثورة فى البلدان الإسلامية وفى بلدان آسيا

وافريقيا وأمريكا اللاتينية من جهة أو دمرت الدول الكبرى نفسها بشكل أو بآخر بحرب أو بدون حرب وأصبحت عاجزة عن المحافظة على سيطرتها وغير قادرة على استعادة تلك السيطرة من جهة أخرى، بل لابد من أن يصل هذا المسار الديناصورى للحضارة الغربية حتى منتهاه، فتصبح أرض تلك الحضارة عطشى إلى الخروج من الجاهلية والظلمات والدخول فى عالم النور أى الخروج من عبودية المادة والنهب والقوة والإنحلال الأخلاقى والحروب المدمرة حتى للحياة نفسها إلى عالم توحيدى واحد تتوازن فيه الجوانب العقيدية والفكرية والثقافية والأخلاقية فى حياة الفرد والجماعة والبشرية كلها، أى تتغير الغايات المتمثلة بتحقيق أكبر قدر من إشباع الشهوة والحاجات المادية والسلع والقوة والسيطرة على حساب الغالبية العظمى من العالم وعلى حساب فطرة الإنسان وجوهره، وهى تفعل ذلك بينما أصبحت تمتلك مخزوناً مروعاً من أسلحة الدمار الشامل خصوصاً النووية والجرثومية والكيماوية، ولا يتوهمن أحد أن ذلك لا يشكل خطراً محدقاً، وما وصول تلك الحضارة إلى هذا المخزون الرهيب إلا الدليل على اتجاه مسارها، وعلى جوهرها الهمجى والمتخلف والرجعى وهى العبارات التى طالما استخدمتها هى بحق غيرها من الحضارات ولكنها شديدة الإنطباق عليها بالرغم من كل تنظير يخفى تلك الحقيقة الصارخة، وهنا يحق للإسلام أن يطرح نفسه مشروعاً متألقاً أمام هذا الظلام الدامس الذى تنشره الحضارة الغربية».